

من أجل المستقبل

>>إذا كانت جماعة الإخوان تريد أي شيء غير أن تبقى أثر متحفى، فإنه ينبغي عليها أن تكيف مؤسساتها مع واقع المجتمع الحالي>>

كتب خليل العناني¹

لقد مر ثمانون عاما على تأسيس حسن البنا لجماعة الإخوان المسلمين. وعلي طول تلك الفترة، تطورت الجماعة من جماعة صغيرة في إحدى مدن القناة وهي الإسماعيلية إلى حركة عالمية تجوب العالم الإسلامي بمدارسها الفكرية والعقائدية المختلفة وخرج من رحمها العديد من الحركات الإسلامية بمختلف الأطياف من التحررية وحتى المسلحة.

بالرغم من هذا العمر الطويل، إلا أن الحركة الأم في مصر يبدو أنها بحاجة ماسة إلى ثورة تصحيحية لإحياء نفسها سياسيا وفكريا. لكن لكي ينجح هذا الإحياء، يتعين على الإخوان أولا أن يقوموا بعمل مراجعة شاملة ومخلصة لأفكار ودوافع ذلك الرصيد من خبرة الإخوان المسلمين.

ولحسن الحظ، فقد أدت الظروف إلى هذه العملية، فمن جهة عكس موسم المشاركة السياسية الذي بدأ بانتخابات 2005 مآسي انتخابات المحليات. والأهم من ذلك أن المجتمع المصري يشهد حالة من التغيرات الاجتماعية والدينية والثقافية مما يدفع الإخوان لوضع منظور جديد.

وعندما أطلقت جماعة الإخوان المسلمين للمرة الأولى مبادرة الإصلاح الشاملة منذ أربع سنوات عام 2004، كانت بوصلتها السياسية تسير باتجاه سياسة المشاركة. لكن مازلنا نشتم رائحة البراجماتية فيها، وكانت الانتعاشة التي شهدتها الجو العام الانتخابي والضغط من أجل التغيير بمثابة فرصة تاريخية للإخوان كي يحققوا مكاسب سياسية. وبالفعل انعكس ذلك فيما حققته الجماعة في الانتخابات التشريعية عام 2005.

¹ محلل سياسي في مجلة السياسة الدولية - إحدى إصدارات مؤسسة الأهرام الصحفية.

لقد شهدت الجماعة دفعة قوية في هذه الفترة، ووطورت من قدراتها من حيث الحشد واستطاعت أن تظهر جراءة غير مسبوقه في مباغته النظام الحاكم وسيطرت على الشارع للمرة الأولى منذ خمسين عاما. لكن كانت هذه الشجاعة ذات نفس قصير حيث تفهقرت سريعا أمام البطش الأمني بها وبقياداتها. أما بالنسبة للبعض كان هذا الاستسلام السريع يبدو غريبا على المجتمع الي بدأ يقف ضد النظام وسياسته (حيث لم تشارك جماعة الإخوان المسلمين في أي من الاحتجاجات التي اندلعت منذ ذلك الحين).

وإذا أرادت جماعة الإخوان المسلمين عمل مراجعة لأفكارها عليها أن تمسك بزمام ثلاثة أمور محورية: الأولى هي الغموض السياسي والفكري الذي يعترها والذي أصبح أحد أهم مميزات عقلية الإخوان المسلمين. فهذه الصفات راسخة في مواقف الجماعة الدينية مما يعرقل تطور خطابها الديني والذي مازالت تعتره الازدواجية والتمجيد لأفكار القدماء سواء العقائدية او الشرعية.

فعلى سبيل المثال، نجد أن أفكار المارودي (974-1058) والتي تتحدث عن السلطة وطبيعة الدولة والحكم وكذلك الفتاوى العقائدية لفقهاء المسلمين قد استمد منها الإخوان المسلمين في كثير من مواقفهم. قد تكون هذه الآراء تناسب ذلك العصر لكن لا يمكن أن تناسب عصرنا. بالطبع يملك فقهاء الجماعة القدرة على العمل بالطرق المعترف عليها في القضايا الدينية مثل القياس والاجتهاد والاستدلال واستخدامها في القضايا الحديثة بدلا من التشبث بالآراء القديمة ومحاولة قولبتها على الظروف الحالية مما يجعل الجماعة تبدو وكأنها أقرب إلى الجماعات السلفية بدلا من كونها حركة سياسية تقدمية ذات إطار مرجعية إسلامية.

إن فقهاء الجماعة ليسوا فقط حرفيين في آرائهم الدينية بل أيضا ينتقون نوعية العلماء الذين يرجعون إليهم. فبدون أي داعي منطقي، يثنون على آراء المفكرين الإسلاميين المعاصرين مثل الدكتور يوسف القرضاوي ومحمد سليم العوا وطارق البشري والمفكر السوداني حسن الترابي وخاصة أعماله المبكرة. كما

يخشون اقتباس الأفكار التقدمية لدى الحركات الإسلامية المعاصرة وخاصة حزب العدالة والتنمية في المغرب وحركة النهضة التونسية ويتحججون بأن تلك الحركات تقع في ظروف وملابسات مختلفة.

ومن الطبيعي أن تثير مواقف الإخوان المسلمين السياسية الاضطراب والالتباس بسبب طريقة تفكيرهم ومنظورهم الديني وقدرتهم على التكيف (هذا باستثناء من يعتبر برنامجهم السياسي المقترح شاهدا على ذلك). فأعتقد أن هذه العقلية الدينية المتشددة للإخوان ترجع إلى سببين رئيسيين: أولاً أن قيادات الجماعة تحشى إذا أطلقت تجربة دينية أو فقهية جديدة أن تهدد وحدة الجماعة وتخسر قاعدتها الشعبية. أما السبب الثاني يرجع إلى افتقارهم للبرامج التي تعبر عن صياغة دينية وفقهية خاصة بهم وهو ما يعبر عن عجز الجماعة بالرغم من أنها تستمد قاعدتها الرئيسية من الدوائر الأكاديمية والاساتذة. أما كل ما ذكرناه سالفًا بجانب أن منهج الإخوان هو منهج مقلدين وليس مجددين فإن كل ذلك يشكل مأزق حقيقي لجماعة لديها جانب دعوي في حين يقود الجانب الآخر اللعبة السياسية.

أما الموضوع الذي يجب أن تتناوله الجماعة هو هيكلها التنظيمي الذي يبدو متآكلا وقديما وبحاجة إلى إصلاحات شاملة. إن هذه الحقيقة لا تتعارض مع ما يعرف عن قدرة جماعة الإخوان المسلمين على تنظيم وتعبئة قياداتها وهي صفة مميزة لكافة الجماعات السرية. والسبب الرئيسي وراء صمود هذه الجماعة وتماسكها لعقود هو التماسك النفسي والأيدولوجي لأعضاء الجماعة. لكن هذه الصفة بدأت تتراجع أمام ضغوط التغيرات المتلاحقة التي يمر بها المجتمع المصري والتي باتت تسهل من إعادة صياغة المعلومات وكذلك تفاوت أنواع الولاء. إن هذه الظاهرة بدأت تظهر بشكل خاص في الفجوة بين الأجيال داخل الجماعة مما دفع بعضهم إلى إخفاء ذلك والبعض الآخر يتباهى بأن ذلك لا وجود له.

إن هذه الظاهرة تشير إلى أن الجماعة بحاجة ماسة إلى أن تخاطب تلك الأفكار البالية التي أدت ليس فقط إلى هيكلها التنظيمي بل كذلك عقلية الجماعة. كما أنها تحتاج بشدة إلى الاسترخاء التنظيمي والمؤسسي

لهيكلها حتى تتمكن من استيعاب الناس داخل هيكلها على أساس الحرية والمشاركة والذي يتعارض مع مبدأ
الولاء والطاعة العمياء. إن الخطوة الأولى لتحقيق هذا الهدف تتمثل في تعديل اللوائح التي تحكم علاقات
الجماعة الداخلية وأنشطتها وذلك لإحداث مرونة وانفتاح أمام الأفكار الجديدة.

أما الموضوع الثالث الذي ينبغي أن تتناوله جماعة الإخوان المسلمين هو مخاطبة مهاراتها التواصلية والذي
يعني قدرتها على التواصل مع العامة. وقد يحتاج البعض على ذلك بأن الإخوان يشتهرون بقدرتهم التواصلية التي
حققوها من خلال العمل الجماعي وأنشطة العمل العام. لكن ليس هذا ما أرنو إليه في هذا السياق: ما أشير
إليه هو محتوى الرسالة التي تنتقل للناس. فهل يتخاطب الإخوان مع العامل بهدف حشد الناس وتعبئتهم بعيد
عن مشروعهم السياسي والدعوي أم يفعلون ذلك لكسب قاعدة دعم شعبية لأفكارهم وآراءهم وفي نفس
الوقت يحاطبون مشكلات الناس ويطورون من أفكارهم وخطابهم وفقا لها؟ وبمعنى آخر هل قناة التواصل ذات
جهة واحدة وهدفها وظيفي بحت أم أنها ذات جهتين وهدفها تطويري؟ إنني أشك في أنها الإجابة الأولى فسلوك
الإخوان المسلمين تجاه العامة كموقف الراعي تجاه قطيعه: فهم يقومون بدور محرر المجتمع الضال وقائده إلى
طريق الخلاص.

والعجيب في الأمر أن دعوة حسن البنا الأساسية كانت تتمثل في تغيير المجتمع حتى يتمكن من تأسيس
الجماعة ودفعها تجاه التغيير. إلا أن قيادات الإخوان المسلمين اليوم تبدو وكأنها تروض دينيا وعقائديا مجتمعا
آخر. فعلى سبيل المثال، ترفض تلك القيادة تغيير موقفها من المرأة والأقباط خوفا من تنفير قطاع عريض من
المجتمع المحافظ الذي يرفض التغيير. إذا فمن الذي يقود إذا كانت قيادة الإخوان المسلمين ترفض تغيير نظرتها
الايديولوجية والدينية من أجل حسابات تتعلق بشعبيتها؟

قد تبدو أفكار الإخوان المسلمين مثالية في مجتمع يفتقد لحالة من الحراك. لكن هذه الأفكار لا تناسب
المجتمع المصري الذي يشهد دفعة على المستوى الفكري والجيلي تدفع النظام القيمي للمجتمع نحو التغيير

والحراك والحيوية بينما تبدو حركة الإخوان المسلمين وكأنها من العصر الحجري. إن تلك النتيجة تؤدي إلى ظهور منافسين يقومون بنفس وظائف الخدمة الاجتماعية نفسها التي احتكرها الإخوان المسلمين لعدة عقود وهذه الجمعيات لا تتطلع لأي مكاسب سياسية من وراء ذلك.

أما بالنسبة للنخب السياسية والفكرية في مصر فلا تبدي جماعة الإخوان المسلمين الاهتمام بالتواصل مع هذه النخب مما يعني أن الجماعة لا تتعلم من أخطائها. والأمثلة على ذلك كثيرة، فبعد الانتصار الكبير الي حققته الجماعة في الانتخابات التشريعية عام 2005، لم يسع الإخوان المسلمين بجدية كي يتواصلوا مع اللاعبين في الساحة السياسية ومن ثم أضعوا فرصة فريدة لبناء تحالف وطني حقيقي يتمكن من كسر سيطرة النظام الحاكم على القوى السياسية. ونتيجة لذلك، أصبح الإخوان فريسة سهلة عندما قررت السلطات البطش بها.

لا يمكن لأحد أن يقلل مما فعله النظام بجماعة الإخوان المسلمين ولا ينكر المصاعب التي تسبب فيها للجماعة مما تسبب في عرقلة تطور الجماعة. كما أن هناك الكثير من الشواهد التي تثبت أن الجماعة لديها إصرار على الاستمرار وكلها مميزات تشجع على القيام بعملية مراجعة حتى تتمكن من ضبط اتجاه بوصلتها. بالطبع إن الجماعة لديها القدرة على أن تعيش ثمانين سنة اخرى لكنها ستجد نفسها منفصلة تماما عن مجتمع يشهد تغيرات كبيرة ومتلاحقة بينما مازالت الجماعة وقادتها يتفوقون على أنفسهم.